كان وقبائلها «17»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان النبيذ
يمتصّ شفاه العنب
ويعتصر عناقيد اللهب،
وحين يعتلي عرش النشوة
يدعو قبائل العرب إلى طاعته
ودخولهم كافة في رقصة الغابات والغضب.

كان الباطل
يلبس الجنز ويقف في الساحات فارداً عضلاته
يصفّر بفمه ويرقّص قدميه ومؤخرته
يهتك عرض الأعراف
ويرد بوقاحة على جائع مسنّ :
هذا زمني، فوداعاً للحق وأعوانه.

كان الباطل
يركل ميزان العدالة
ويبيع القوانين في سوق الأغنام
ويقسم المدينة إلى ضياعين،
ويغسل عقول الصبية بشعارات فائضة
ويغلق أبواب المحبة ويتهم الحكمة بالإرهاب
ويمنح الحقد رتبا عسكرية..
يسن طرقاً جديدة لمطاردة العقول
ويبيح لقطّاع الطرق قنص النور
وإطلاق الرصاص على الأسماء العابرة.

كان الباطل
يصادر حليب الأطفال
ويكفّر كل مَنْ يشعر بالجوع
أو يطلب فرصة أخرى لعقد هدنة مع الألم..
يطلب من شياطينه الصغار مصائب جديدة
وتلفيق تهم قبيحة ضد خصومه،
وتعميم الرعب على الجميع.

كان الباطل
يجيد التفاهة بجميع لغات الغابة،
ويحلم كثيراً بصداقة أسماك القرش
وإخضاع الأسود للعمل كباعة للأكاذيب ..
والتصفيق للفئران.

كان الباطل
ينادي بالدولة المدنية، وقدماه فوق عنق عامل النظافة،
يتناول طعامه في مطعم راقٍ
ويغتال الطباخين تعبيراً عن إعجابه..
ينهب عفّة الضعفاء
وتشيع كلابه عن نيته افتتاح مدرسة لبراعم المستقبل.

كان الباطل
يحقن جسده بالهروين والمورفين
ويحاول الهروب من فراغه..
بافتعال معارك وهمية،
وإنتاج مسلسلات برازيلية
يلعب فيها دور البطولة
والعاشق المفتون بشريرة المسلسل السمراء.

كان الشيطان
يتعوذ من شر الهمج الخنّاس
وينفي أية صلة له بأخلاقيات الشر المطوّرة،
ويقدم براءة ذمة إلى هيئة مكافحة الفساد،
ويعلن براءته للجمهور وقُبيله الكُثر
ويطالب بمحاكمة من انتحلوا شخصياته
والقصاص من أدعياء العدالة وإمعات الفكر
وقتلة الأطفال ومصاصي دماء البسطاء.

كان الشيطان
يقدم استقالاته من المجتمع المدني المسيّس،
ومن مجالس الزيف الوطني
ويعتذر عن بطولة فيلمه القادم
«صراع مع حفنة أشباح»
ويعتذر لبنوك الربا المتأسلمة
عن تأخره عن تسديد أقساطه المتأخرة..
ويعتذر لرَجُل المرور عن تجاوزه للسرعة،
وينصح كتّاب التزييف مراسلي والإعلام
بالتوبة عن تمجيد الأباطيل المترهلة،
وينبّه تجّار الحروب بفحص معدل التسمم في دمائهم،
ويرشد عميان الضمائر إلى طريق الوطن السوي،

كان الشيطان
يسلّم أسلحته إلى أقرب قسم شرطة
ويُدلي بأقواله في الجرائم الغامضة
ويقدم كشوفاته بأسماء جميع المتورطين في النهب العام
وإقلاق السكينة العامة، والمتاجرة بأرواح الناس،
ويكشف مؤامرات جميع الخونة.

كان الشيطان
يقبّل تراب الأرض الطاهرة
معترفاً بذنوبه وآثامه في الإساءة إلى عظمة هذا التراب،
ويذرف دموعه الحرّى
اعترافاً بما سبّبه من مآس، وندماً على انخراطه في الماضي
مع أشرار الإنس.

كان الشيطان
يعظ نفسه من شر أعماله
ويتعوذ برعب من شر الهمج الخنّاس..
ويحزم حقائبَه للرحيل بعيداً
فلم يعد له ضرورة أو مهنة أو بقاء
في ظل مَنْ تفوقوا عليه بمؤهلاتهم العالية..
وصاروا يعملون في كل شيء
حتى مهنة الشيطان.

كان المذيع
يفصل وطنا من المعارك
وشعباً من كائنات الشطرنج
وتاريخاً من أوراق القات
وصراعات من نوافذ الأهواء
وانتصارات من أنين الأرامل
ويختتم فقراته بالدعوة
إلى المطالبة بدعم الفراغ
لتسويق أكذوبة العصر الجديد..

كان الفم
يهمس لفم رقيق: عليك قبلاتي
فيرد التحية بأحسن منها:
وعليك شهدي وقطراته..

كان الوحيد
يعزز عزلته بمزيد من الأصدقاء
وبمزيد من أولاده غير المنظورين
وبجماهير من المعاني
وبقبيلة من الصمت.

كان الوحيد
يجذب إليه نحل الهموم
وإيقاع المدينة الرتيب
وزواريب المطر الموسمية
وحقائب البرق المدخرة
ومسيرة المليون صفحة
وجمهور ملعب الرغيف الوطني
وجموع القلق المسلحة
ومجمع الخالدين في ذاكرة الغبار
وشعوب الجوع المتحدة،
ويناوش الجميع بحضوره
وبصراخه الموسق على مقام الألفة
يضجر من انتظار الصدى
يتعب من يده الممدودة للفراغ
يمل من الوقوف بين هذه الحشود
وحده مع وحده
ولاشيء يدبُّ فوق طبلة الوحشة.

كان الاقتصاد
يهرب من طابور البنك الصباحي
ويغافل سعر العملة الرسمي
ويذهب إلى المقهى ليتلقى لعنات الناس..

كان الاقتصاد
يذهب إلى مواقف الحافلات
ويعمل كبائع للمناديل الورقية
وأحياناً مناد لركاب الحافلة..
ويمسح زجاج السيارات،
وحينما يشتد الزحام
يتحول إلى خبير بصرف العملات
وعقد قرآن الأرباح
والتوفيق بين رأسين في الحلال
ورأسين في الأسواق العابرة..

كان الاقتصاد
ينفي أية قرابة تجمعه بالمخزون الاستراتيجي للعافية
أو أية صداقة تربطه بإيقاع الحياة،
كان مجرد موظف في دكة البطالة
يستدعى للشهادة في الظروف الطارئة
ويقدم تقاريره الطبية إلى صندوق النقد الدولي
لإدراجه ضمن المعوقين المستحقين للعلاج المجاني..

كان الاقتصاد
يشكو من ترّهل جسده بالدهون الرديئة
ويحلم بجسد رشيق
يمكنه من اللعب ضمن المنتخب الوطني
وتسجيل أهدافه الذهبية
في شباك كأس العالم.. للعالم النامي..

كان الاقتصاد
يشكو بحرقة من الأولاد السيئين
الذين يلعبون بمقتنياته وأشيائه الخاصة،
ويسرقون طقم أسنانه
ويعبثون بعلبه نشوقه،
ويشوشون على سمعته في سوق العملات..
ويتركونه بلا غطاء جوي
عرضة للانهيارات المتلاحقة
وموضوعاً للتندر في بنوك العالم..

كان الجلاد
يخلع ماضيه الملطخ بالسواد
ويرمي إلى النسيان قوائم ضحاياه المهملة،
ويذهب إلى الجامع ليصلي ركعتين
ويبدأ رحلته مع كنيته الجديدة..
يخلع ملامحه الحربية
وندوب معاركه وصدى مذابحه وغنائمه
ويرتدي سمت الأتقياء
وهموم البسطاء ورومانسية العاشقين..
ويعلن عن قيامه بتأسيس حزب ديمقراطي
للحالمين بضياع أفضل،
وتدشينه لمشروع وطن حسب كتالوج الأحقاد..

كان الجلاد
يقتفي عصر السلف الأبيض
ويتزود من كتب التقوى
وينهل كل صباح من أوراد « رياض الصالحين»
ويتبارك بدعاء الوالدين
ويقلب قاموس « أكسفورد» بحثاً عن كلمة مداهنة
يتوكأ عليها في سيره نحو التأويل الجديد
لصراع الحضارات ،وصراع الحارات،

كان الممنوع
يرتدي جبّة الفقيه الطارئ
ويتجول في ضواحي المدينة المريضة بالانفصام،
يركب مدرعة عسكرية مغرراً بها
ويتفقد سير الوباء العام
يفتش الجدران ،وينقف صمتها القديم،
يبحث في جيوب الهواء الراكد
عن منافذ لتسرب الريح
وتهريب الزفرات المؤجلة،
ويفتش قمصان الوقت
بحثاً عن ساعة تتوعد عقاربها
ويفتش حقائب الأطفال
بحثاً عن نشيد وطني يستعد لتحية الصباح،
ويفتش محتويات التلفون الجوال
بحثاً عن صورة نسر سبئي
ينقض بمخالبه على الثعبان

كان الممنوع
يطرد الطلاب من صفوفهم المدرسية
ويحولها إلى متراس لقنص المارة،
وغرف لنتف أجنحة العصافير
وزنازن للتحقيق مع شقشقة طلائع النور
ومحارق لإعدام كتب التنوير وكيف تتعلم أن تقول « لا»
وسراديب لدفن الارادة..
وحظيرة مزدهرة لغد عقيم..

كان الحمار
يكره أغنية « للصبر حدود»
وقادة حظائر البهائم الطغاة
وأسواق القرى الأسبوعية
وسراق القوافي وأفكار الفيديو كليب
وصبيان الفلاحين وأطفال الحارات المهمشة ..
وركلاتهم الترجيحية المؤلمة..
ويصاب بالذعر كلما رأى عصا خضراء
تتأرجح في الهواء معلنة حضورها و نفوذها

كان الحمار
يطلق نهقة منغمة وحالمة
كلما رأى حسناء الحقول تتمايس في الصباح،
ويحلم بأتان أحلامه المجهولة
وبيوم سعيد يعبر فيه عن أشواقه المكتومة..
وبأفق حر يطلق فيه لقوائمه عنان الحرية

كان الحمار
يسخر من قائد فرقة الكشافة
وضابط المعسكر المكرش ،ومدير المدرسة المهموم بالرسوم المدرسية
وفقيه القرية المولع بأخبار المطلقات وخلافات الورثة
وسائقي باصات المدينة ،ومدراء عموم اللطش العام
ونساء المدن المسترجلات وبنات «النت»
وجميع من يملكون نظرة قاصرة
ممن أدمنوا أطلاق اللعنات المفخخة
وألصقوا بكلمة» حمار» المبجلة
كل معنى للغباء والجهل والاستحقار...

كان الحمار
يتقنع خلف أقنعته التراثية
يتخندق خلف الصفات المتوارثة لبني قومه
ويعد حوافره للهبة المنتظرة..

كان الحمار
يناضل في صمت ،من أجل غد أفضل للحمير،
ويفكر بإنشاء حزب سري لبدء النضال
ويخطط بجدية للتواصل مع بني قومه في الشتات
وفتح صفحات في « الفيس بوك» للتعارف،
ولفت وسائل الإعلام إلى القضية المنسية،
ويتفرس في وجوه رفاقه ومواهبهم
لعله يعثر على ناطق إعلامي يجيد اللباقة والوقاحة..

كان الحمار
يعاني من وضع بني جنسه ،وحقوقهم المهدورة،
ويتأزم نفسياً كلما رأى حماراً يتعرض للضرب المبرح
والحمولة الزائدة والعمل الإضافي ،وتلقي الأهانات
وينهق ألماً كلما رأى « حمارة» في ريعان الشباب
وهي تنتقل بين يدي شبان القبيلة في الليالي المظلمة
أو تمنح كهدية لحمار القرية الفحل ،من اجل أنتاج
سلالة قادرة على العمل الفردي..
أو يرى جحشاً صغيراً ودمه ينزف على الأسفلت
بسبب صدمة سيارة طائشة،
أو يرى حماراً مقيداً ومضروباً
لرفضه العمل المنهك والمتواصل
أو يرى مجموعة أتان
يتعرضن لهتك من قبل ذئاب القرى البائسة

كان الحمار
يدرس بدقة مسار حركات التحرر العالمية
وتجارب شعوب الأرض في النضال
وجدوى حرب العصابات والاعتصامات
ويحلم بتدخل هيئة الأمم المتحدة لحقوق الحيوان
وبتخصيص يوم عالمي للحمير
وبقناة فضائية تهتم بكل شئون «الحيمرة» ..

كان الحمار
يحلم بالتحرر من عبودية البشر،
هؤلاء الذين يهتمون بأنفسهم
وينكرون على الكائنات الأخرى حقوقها المستباحة..
يحلم مثل بقية الكائنات
ويتمنى ظهور«منديلا» حمارياً في بني قومه
ينتزع حقوقهم الضائعة

كان الحمار
يعد نفسه لمستقبله الثوري،
ويحلم أن يكون له مذهب فلسفي مثل «سارتر»
وشعرٍ منكوش مثل «انشتاين»
وسخرية لاذعة مثل «برناردشو»
وعبقرية مثل «بيكاسو»
وحكمة مثل «طاغور »
ورؤى مثل «شكسبير»
وقصيدة مثل «ت. س. أليوت»
وشهرة مثل «المتنبي»
وإبداع مثل «بتهوفن»
ويحلم بوجود مقهى للمفكرين الحمارنة
وعاصمة ثقافية للاستحمار الثقافي
واتحاد أدباء وكتاب للحمير
وجامعة كبرى تخرج الكوادر المؤهلة
و..و..و..و..و.

كان الحمار
يتمرن على كيفية أن يصبح مناضلاً معروفاً
وقائداً ومعلماً ملهماً ،من أجل «القضيةالحمارية»
وأن يطلق لحيته ويشرد بنظراته أمام الآخرين
وأن يتصور وحوافره على خده مثل المفكرين
وأن يرتدي قبعة بنجمة مثل «أرنستو تشي جيفارا»
وبدلة زرقاء مقطعة الأكمام مثل «ماوتسي تونج»
وأن يكون له صلعه مثل «لينين»
وملامح حادة مثل «جورج واشنطن»
وبدله كاكي مثل «فيدل كاسترو»
وسيجار مثل «ونستون تشرشل»
وشنب مثل «ستالين»
وحلم مثل «بسمارك»
وجرأة مثل «تشافيز»
ونزاهة مثل «بومدين»
وكبرياء مثل «صدام»
وشموخ مثل «ناصر»
وزهد ومغزل مثل «غاندي»
وجنون وثورية مثل «القذافي»
وإصرار وكفاح ونضال مثل «هو شي منه»،
وخطابة مثل العربي
ومجد مثل صاحبه..
ووسامة ثورية مثل نفسه..

كان الحمار
يتعوّذ أن ينحرف عن طريقه الذي اختاره
أو يصير مثل الساسة الذين ينتمون إلى فصيلة البلادة
أو يصير مثل قادة الأحزاب الموبوءة بالإيدز الفكري
أو يكون مثل زعماء الغلطة المطبعية
أو يصبح شيخاً من شيوخ أفريقيا آكلة اللحوم البشرية
أو مثقفاً يروج للخرافات
أو فقيهاً يبرر للنهب والدمار
أو يتحول إلى تاجر حروب وبياع ذمم
أو قائد عصابة للمافيا.

كان الحمار
يخطط لحياته بعد الأستقلال
أن يحيل نفسه إلى التقاعد
ويعتزل العمل السياسي
ويتفرغ للعمل كمطرب شعبي
ويصدح بأغنيتة المفضلة» بحبك يا حمار»

كان الحمار
يصاب بالكآبة كلما تبخرت أحلامه
وينتابه الهلع كلما سمع صوت صاحبه المخيف
ويشعر بمذاق الانكسار كلما لامست العصا جلده،
ويحس بالقهر يوخز مؤخرته
ويعزي نفسه بأن لكل حمار كبوة
وأن القضايا الكبرى لا بد لها من تضحيات
وأن أول الحرية خطوة في الطريق الطويل..

■ مقاطع من نص طويل